الوقوف بين يدي الله تعالى

جميع حقوق الطبع والنسخ والنشر محفوظة

لا يجوز إعادة نسخ أو طبع أو نشر هذا الكتاب أو أى جزء منه
بأى طريقة كانت ميكانيكية أو إلكترونية أو التصوير أو التسجيل
أو البث عن طريق الشبكات الإلكترونية أو غيرها إلا بموافقة
الناشر على ذلك كتابة ومقدماً

المكتب المصرى الحديث
www.almaktabalmasry.com
info@almaktabalmasry.com

القـــاهرة: ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت: ٣٩٣٤١٢٧
الإسكندرية: ٧ شـــارع نوبـــار المنشـــية ت: ٤٨٤٦٦٠٢

عبد الحميد كشك

الوقوف بين يدي الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ) (الحاقة:١٨)

(صدق الله العظيم)

المكتب المصري الحديث
www.almaktabalmasry.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد / فهذا كتاب أتناول فيه الحديث عما سيجرى على العباد فى ساحة العرض على الله من سؤال يتلوه ثواب أو عقاب، وبين نور الوعد ونيران الوعيد يدور حديثنا على هذه الصفحات ليكون تذكرة لمن أراد أن يذكر (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) (الذريات:٥٥) وما أحوج النفس البشرية إلى التذكرة الدائمة؛ فإن مثلها كمثل زجاجة الدواء إذا لم ترج عند استعمالها رسبت العقاقير فى قاعها فلم تغن شيئا، كذلك النفس البشرية تنتابها حالات غفوة فبين هدهدة الشهوات وغفوة الضمير تنام النفوس فى مضمار الثرى وتتمرغ فى أوحال المادة وعندها يذكرنا الله تعالى بقوله: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) (آل عمران:١٤).

نعم هذه أمور تتراكم على النفس كما يتراكم الصدأ على النحاس وعندها لابد من جلاء يجلوها، فما هو الجلاء؟

قال تعالى: (قُلْ أُؤَنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ

النَّارِ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ (آل عمران:١٥-١٧).

نعم، إن جلاء القلوب هو ذكر الله وتلاوة القرآن.

ويوم تتربع الدنيا على مملكة النفوس البشرية تخلعها خلعا عن ذكر الله فإن من الحقائق الثابتة أن من سكر بالخمر قد يفيق، أما من سكر بحب الدنيا فلن يفيق إلا إذا اصطدم رأسه بجدار القبر (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(هود:١٥-١٦).

كم تساوى دنياك يا ابن آدم بجانب نار الغمسة فيها تنسيك نعيم الدنيا وما فيها فكل نعيم دون الجنة حقير، وكل بلاء دون النار عافية، إن الدنيا مهما طالت فهى مولية، ولذلك تعجب وأنت تقف أمام تصوير القرآن الكريم للدنيا تظن أن القرآن سيذكر فيها صفحات تتلوها صفحات أخرى، لكنه - ولله الحجة البالغة - ذكرها فى كلمات لا تتجاوز سطرًا واحدًا، وسرعان ما طواها كما يطوى البرق معصرات الغمام، اقرأ معى هذا النص الكريم: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً) (الكهف:٤٥) .

ثم اقرأ قوله جل شأنه: (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ

زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (يونس:٢٤).

ثم ماذا؟ ما العاقبة؟ ما المصير؟ ما السبيل؟ ما طريق الحياة الآمنة؟

يقول تعالى (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (يونس:٢٥-٢٦).

من هؤلاء الذين استحقوا هذه الدرجات العلا؟ إنهم الذين جمعوا فى قلوبهم بين الذكر والفكر، والذين وصفهم مولانا تبارك اسمه فى آيات قال فيها: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ) (آل عمران:١٩٠-١٩٤).

ما جزاؤهم بعدما ذكروا الله بلفظ ربنا خمس مرات؟ (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ) (آل عمران: ١٩٥).

ولما كانت السورة التى ذكر فيها هذا المشهد الربانى وهى سورة (آل عمران) لما كانت هى سورة الجهاد فى غزوة أحد عقب الله على الاستجابة بقوله: (فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ) (آل عمران: ١٩٥).

نسأل الله أن يجعلنا ممن شملتهم هذه الاستجابة وأن يحشرنا معهم على خير حال غير فاتنين ولا مفتونين فهو أعظم مأمول وأكرم مسئول.

والله المستعان وعليه التكلان.

السؤال عن آلاء الله

اعلم يا ابن آدم أنه لابد لك من موقف تسأل فيه أمام الله عن نعمه عليك أأديت شكرها؟ أم كنت لها جاحدا وصلى الله وسلم على سيد المرسلين إذ علمنا الشكر على نعم الله، فكان إذا أصبح يقول: "اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر" ويرحم الله نبيه موسى عندما سأل الله قائلا: يارب كيف أشكرك؟

قال له: يا موسى تذكرنى ولا تنسانى، إنك إن ذكرتنى شكرتنى وإن نسيتنى كفرتنى (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ) (البقرة:١٥٢).

وسليمان يسأل ربه: (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) (ص:٣٥) فاستجاب الله دعوته وقال سبحانه: (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ) (ص:٣٦-٣٨) ثم قال له صاحب الإنعام: (هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (ص:٣٩).

فماذا كان رد سليمان، هل ملك الغرور عليه نفسه؟ لا... لأن نفسه كانت محاطة بأسوار منيعة فكان رده (قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) (النمل: ٤٠) وهو سليمان نفسه الذى تبسم ضاحكا من قول النملة (فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ

وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) (النمل:١٩).

يحدثنا الأستاذ عبد الله سراج فيقول: إن الله تعالى سوف يسأل العبد يوم القيامة عما أنعم عليه به من أنواع النعم: السمعية والبصرية والعقلية والبدنية والصحية والقوة والمتع النفسية واللذائذ الجسمية وغير ذلك.

كذلك يسأل عما خوله الله تعالى من الأموال على مختلف أنواعها.

روى الترمذى عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "يجاء بابن آدم يوم القيامة كأنه بذج فيوقف بين يدى الله تعالى فيقول الله تعالى له: أعطيتك وخولتك وأنعمت عليك فماذا صنعت؟ فيقول: يا رب جمعته وثمرته وتركته أكثر ما كان فأرجعنى آتك به.

فيقول الله تعالى: أرنى ما قدمت، فيقول: رب جمعته وثمرته وتركته أكثر ما كان، فأرجعنى آتك به فإذا عبد لم يقدم خيرًا، فيمضى به إلى النار".

كما أنه يسأله عن نعمة الزواج والوجاهة بين الناس وجميع ما خوله من النعم والأسباب والمظاهر والمفاخر.

روى الإمام مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: "هل تضارون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ليست فى سحابة؟" قالوا: لا، قال: "هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ليس فى سحابة؟" قالوا: لا، قال: فوالذى نفسى بيده لا تضارون فى رؤية ربكم إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما".

قال صلى الله عليه وسلم: فيلقى العبد ربه فيقول الله تعالى: أى فل (أى يا فلان) ألم أكرمك وأسودك "أى ألم أجعلك سيدا فى أهلك أو قومك" أزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأتركك ترأس وتربع؟

فيقول العبد: بلى، فيقول الله تعالى: أظننت أنك ملاقي؟ "أى هل كنت فى الدنيا تعتقد أنك تلقانى فى يومك هذا".

فيقول (أى العبد الكافر): لا، فيقول سبحانه: فاليوم أنساك (أى أتركك فى العذاب) كما نسيتنى.

ثم يلقى الثانى فيقول: أى فل (أى يا فلان) ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخرلك الخيل والإبل وأتركك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى يا رب، فيقول: أى الله تعالى – أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى: فإنى أنساك كما نسيتنى.

ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك (أى والقائل منافق) يا رب آمنت بك وبكتابك ورسلك وصليت وصمت وتصدقت، ويثنى بخير ما استطاع (أى: ويدعى أنه عمل بما أمر الله تعالى به وأدى حقوق تلك النعم واستعملها فى مرضاة الله تعالى ولكنها دعوى كاذبة) فيقول الله تعالى: أهاهنا من يشهد لك؟ فيقول لا. فيقول سبحانه وتعالى: الآن نبعث عليك شاهدنا، ويتفكر فى نفسه: من الذى يشهد عليه، فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقى، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله. وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق الذى سخط الله تعالى عليه".

وفى هذا تنبيه للمسلم إلى أن يهتم بشكر نعمة الله عليه وأن يرعاه حقوقها وأن يصرفها فى طاعته تعالى ومرضاته ويتخذها عونا له على دينه وعبادته وآخرته ولا يكفر نعم الله تعالى ولا ينشغل بها عن عبادة الله تعالى ولا يصرفها فى الشهوات المحرمة بأن يتقوى بها على معصية الله تعالى فإنه مسئول عنها وعن حقوقها وعن شكرها (وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) (آل عمران: ١٤٤).

ولقد كان سيد الشاكرين صلى الله عليه وسلم يدعو وراء الصلوات المكتوبة ويسمع الصحابة تعليمها لهم فيقول:

"اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر والعزيمة على الرشد وأسألك لسانا صادقا، وقلبا سليما، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك مما تعلم وأنت علام الغيوب". (رواه الترمذى)

ويسأل الإنسان كذلك عن نيته ومراده من الأعمال الصالحة، هل كان فى ذلك العمل مخلصا لله تعالى مبتغيا مرضاة الله ورضوانه، أم كان مقصوده من ذلك العمل الرياء، أو يقال عنه: إنه صالح أو منفق أو عابد أو نحو ذلك؟

قال تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (هود:١٥-١٦).

قال ابن عباس رضى الله عنهما: نزلت هذه الآية فى الذين يعملون عمل الآخرة لنيل الدنيا.

روى مسلم عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قول: "إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه: رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال الله ه: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال هو جرىء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعملته وقرأت فيك (يارب) القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارىء فقد قيل ثم أمر به فحسب على وجهه حتى ألقى فى النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأتى به فعرفه نعمه – سبحانه – فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال الله تعالى له: كذبت ولكنك أنفقت ليقال هو جواد، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار".

قال الحافظ المنذرى رواه مسلم والنسائى ورواه الترمذى وحسنه وابن حبان فى صحيحه. أ. هـ.

ويسأل الواعظون والخطباء عما أرادوه من وعظهم وخطبهم.

روى ابن أبى الدنيا والبيهقى مرسلا بإسناد جيد عن مالك بن دينار عن الحسن رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما من عبد يخطب خطبة إلا الله عز وجل سائله عنها – أظنه قال: ما أراد بها؟".

قال جعفر: فكان مالك بن دينار رضى الله عنه إذا حدث بهذا الحديث بكى حتى ينقطع ثم يقول: تحسبون أن عينى تقر بكلامى عليكم وأنا أعلم أن الله عز وجل سائلى عنه يوم القيامة ما أردت به؟

ولذلك أثنى الله تعالى على أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بقول سبحانه: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً) (الفتح: ٢٩) .

فمدحهم سبحانه بالتراحم بينهم ثم بكثرة أعمالهم وتقرباتهم إلى ربهم بالعبادات، وأهمها وأفضلها الصلاة فقال سبحانه: (تراهم ركعا سجدا) يعنى أنهم من كثرة صلواتهم وتنفلاتهم حيثما نظرت إليهم أيها العاقل تراهم ركعا سجدا ولما مدحهم بكثرة عبادتهم مدحهم بالإخلاص فى عبادتهم وذلك أنهم يبتغون بتلك الركعات والسجدات فضلا من الله ورضوانا فلا رياء ولا سمعة ولا كبر.

وأما قوله تعالى: (فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ) (الرحمن: ٣٩) فهذه الآية لا تختلف مع قوله تعالى: (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الحجر:٩٢-٩٣).

وقوله: (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ) (الصافات:٢٤)

لأن يوم القيامة يوم طويل، وفيه مواقف ومواطن متعددة فيسألون فى مواطن ولا يسألون فى موطن آخر.

أو المراد بقوله تعالى: (فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ) (الرحمن:٣٩) أنهم لا يسألون سؤال استعلام أى لا يسألون عن ذنوبهم

علم من جهتهم لأن الله تعالى قد علمها جميعا، وكتبها الحفظة عليهم، لكنهم يسألون للتوبيخ والتعنيف و الزجر.

أو المراد: لا يسأل الملائكة المجرمين عن ذنوبهم، إذ لا حاجة إلى سؤالهم عنها لأنهم يعرفون بسيماهم بدليل قوله تعالى بعد تلك الآية: (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ) (الرحمن:٤٠-٤١).

أى بسواد وجوههم وزرقة عيونهم (فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ) (الرحمن:٤١) أى: تجعل أقدامهم مضمومة إلى نواصيهم ثم يلقون فى النار، نعوذ بالله العظيم من ذلك.

صفة الخصماء ورد المظالم

وبعدما فرغنا من بيان الأسئلة التى ستوجه إلى العباد يوم القيامة عل اختلاف أحوالهم ومكانتهم ننتقل إلى بيان ما سيجرى على ساحة القيامة م صفة الخصماء ورد المظالم، قال الله تعالى فى سورة غافر: (رَفِي الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّ سَرِيعُ الْحِسَابِ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَ لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُور وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُو السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (غافر:١٥-٢٠).

وتعال معى الآن يا أخى لترى ماذا قال العلماء فى صفة الخصوم ورد المظالم.

اعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان إلا من حاسب فى الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطواته ولحظاته كما قال عمر رضى الله عنه: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا" وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحا ويتدارك ما فرط من تقصيره فى فرائض الله تعالى ويرد المظالم حبة بعد حبة ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه ويطيب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة وعلى فريضة فهذا يدخل الجنة بغير حساب وإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه فهذا يأخذ بيده وهذا يقبض على ناصيته وهذا يتعلق بلببه، هذا يقول ظلمتنى وهذا يقول شتمتنى

هذا يقول استهزأت بى وهذا يقول ذكرتنى فى الغيبة بما يسوؤنى وهذا يقول جاورتنى فأسأت جوارى وهذا يقول: عاملتنى فغششتنى وهذا يقول: ايعتنى فغبنتى وأخفيت عنى عيب سلعتك وهذا يقول: كذبت فى سعر تاعك، وهذا يقول: رأيتنى محتاجا وكنت غنيا فما أطعمتنى، وهذا يقول: جدتنى مظلوما وكنت قادرا على دفع الظلم عنى فداهنت الظالم وما عيتنى. فبينا أنت كذلك وقد أنشب الخصماء فيك مخالبهم وأحكموا فى لابيبك أيديهم وأنت مبهوت متحير من كثرتهم حتى لم يبق فى عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته فى مجلس إلا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة أو خيانة أو نظر بعين استحقار وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم، إذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله: (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ) (غافر: ١٧)، فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة وتوقن نفسك بالبوار وتتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، حيث قال: (وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ) (إبراهيم:٤٢-٤٤).

فما أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أحوالهم، وما أشد حسراتك فى ذلك اليوم إذا شو فهت بالسؤال وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقا أو تظهر عذرًا، فعند ذلك تؤخذ حسناتك التى تعبت فيها عمرك وتنقل إلى خصمائك عوضا عن حقوقهم.

قال أبو هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هل تدرون مر المفلس؟ قلنا المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار ولا متا. قال: المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذ من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار".

قال الإمام الغزالى رحمه الله:

فانظر إلى مصيبتك فى مثل هذا اليوم؛ إذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكايد الشيطان، فإن سلمت حسنة واحدة فى كل مدة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل لعلمت أنه لا ينقضى عنك اليوم إلا ويجرى على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفى جميع حسناتك فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير فى الطاعات وكيف ترجو الخلاص من المظالم فى يوم يقتص فيه للجماء من القرناء فلقد روى أبو ذر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين تنتطحان فقال: يا أبا ذر أتدرى فيما تنتطحان؟ قلت: لا، قال: ولكن الله يدرى وسيقضى بينهما يوم القيامة.

وقال أبو هريرة رضى الله عنه فى قوله عز وجل: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) (الأنعام:٣٨).

قال رضى الله عنه: إنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة، البهائم والدواب والطير وكل شىء فيبلغ من عدل الله أن يأخذ للجماء من القرناء ثم يقول: كونى ترابًا فذلك حين يقول الكافر: ياليتنى كنت ترابًا، فكنت أنت يا مسكين

ى يوم ترى صحيفتك خالية من حسنات طال فيها تعبك فتقول: أين حسناتى فيقال: نقلت إلى صحيفة خصمائك وترى صحيفتك مشحونة سيئات طال فى الصبر عنها نصبك اشتد بسبب الكف عنها عناؤك فتقول: يا رب هذه سيئات ما قارفتها قط فيقال: هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم و شتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم فى المبايعة والمجاورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والمدارسة وسائر أصناف المعاملة.

قال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الشيطان قد يئس أن تعبد الأصنام بأرض العرب، ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات وهى الموبقات.

فاتقوا الظلم ما استطعتم فإن العبد ليجيء يوم القيامة بأمثال الجبال من الطاعات فيرى أنهن سينجينه، فما يزال عبد يجيء فيقول: رب إن فلانا ظلمنى بمظلمة فيقول: امح من حسناته فما يزال كذلك حتى لا يبقى له من حسناته شيء، وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب فتفرق القوم فحطبوا فلم يلبثوا أن أعظموا نارهم وصنعوا ما أرادوا وكذلك الذنوب. ولما نزل قوله تعالى: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) (الزمر:٣٠-٣١).

قال الزبير: يا رسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب قال: نعم، ليكررن عليكم حتى تؤدوا إلى كل ذى حق حقه.

قال الزبير: والله إن الأمر لشديد.

فأعظم بشدة يوم لا يسامح فيه بخطوة ولا يتجاوز فيه عن لطمة ولا عن كلمة حتى ينتقم للمظلوم من الظالم. قال أنس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يحشر الله العباد عراة غبرًا بهما، قال قلنا: ما بهما؟

قال: ليس معهم شيء ثم يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كه يسمعه من قرب: "أنا الملك أنا الديان لا ينبغى لأحد من أهل الجنة أر يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقتصه منه ولا لأحد مر أهل النار أن يدخل ولأحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقتصه منه حتى اللطمة، قلنا وكيف وإنما نأتى الله عز وجل عراة غبرًا بهمًا، فقال بالحسنات والسيئات".

قال الأمام الغزالى رحمه الله تعالى تعقيبًا على ما مضى: فاتقوا الله عباد الله ومظالم العباد بأخذ أموالهم والتعرض لأعراضهم وتضييق قلوبهم وإساءة الخلق فى معاشرتهم فإن ما بين العبد وبين الله خاصة فالمغفرة إليه أسرع ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب المظالم فليكثر من حسناته ليوم القصاص وليسر ببعض الحسنات بينه وبين الله بكمال الإخلاص بحيث لا يطلع عليه إلا الله، فعساه يقربه ذلك إلى الله تعالى فينال به لطفه الذى ادخره لأحبابه المؤمنين فى دفع مظالم العباد عنهم، كما روى عن أنس رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه. فقال عمر: ما يضحكك يا رسول الله بأبى أنت وأمى؟ قال: رجلان من أمتى جثيا بين يدى رب العزة فقال أحدهما يا رب خذ لى مظلمتى من أخى فقال الله تعالى "أعط أخاك مظلمته".

فقال: "يا رب لم يبق من حسناتى شيء" فقال تعالى: للطالب كيف تصنع ولم يبق من حسناته شيء؟ قال يا رب يتحمل عنى من أوزارى.

قال وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال: إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم، قال:

فقال الله للطالب: "ارفع رأسك فانظر فى الجنان" فرفع رأسه "فقال يا رب أرى مدائن من فضة مرتفعة وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ لأى نبى هذا؟ أو لأى صديق هذا؟ أولأى شهيد هذا؟ قال: لمن أعطانى الثمن.

قال: يا رب ومن يملك ثمنهم؟ قال أنت تملكه، قال وما هو؟ قال عفوك عن أخيك.

قال: يا رب إنى قد عفوت عنه.

قال الله تعالى: "خذ بيد أخيك فأدخله الجنة" ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين".

وهذا تنبيه على أن ذلك إنما ينال بالتخلق بأخلاق الله وهو إصلاح ذات البين وسائر الأخلاق.

فتفكر الآن فى نفسك إن خلت صحيفتك عن المظالم أو تلطف لك حتى عفا عنك وأيقنت بسعادة الأبد كيف يكون سرورك فى منصرفك من مفصل القضاء وقد خلع عليك خلعة الرضا وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء وبنعيم لا يدور بحواشيه الفناء وعند ذلك طار قلبك سرورًا وفرحًا وابيض وجهك واستنار وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر فتوهم تبخترك بين الخلائق رافعا رأسك خاليا عن الأوزار ظهرك ونضرة نسيم النعم وبرد الرضا يتلألأ من جبينك وخلق الأولين والآخرين ينظرون اليك وإلى حالك ويغبطونك فى حسنك وجمالك والملائكة يمشون بين يديك ومن خلفك وينادون على رؤوس الأشهاد هذا فلان بن فلان رضى الله عنه وأرضاه وقد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا أفترى أن هذا المنصب ليس بأعظم من المكانة التى تنالها فى قلوب الخلق فى الدنيا برياءك، ومداهنتك وتصنعك

وتزينك، فإن كنت تعلم أنه خير منه بل لا نسبة له إليه فتوسل إلى إدراك هذه الرتبة بالإخلاص الصافى والنية الصادقة فى معاملتك مع الله فلن تدرك ذلك إلا به وإن تكن الأخرى والعياذ بالله بأن خرج من صحيفتك جريمة كل تحسبها هينة وهى عند الله عظيمة فمقتك لأجلها فقال: عليك لعنتى يا عبد السوء لا أتقبل منك عبادتك فلا تسمع هذا النداء إلا ويسود وجهك ثم تغضب الملائكة لغضب الله تعالى، فيقولون: وعليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين وعند ذلك تنثال إليك الزبانية وقد غضبت لغضب خالقها فأقدمت عليك بفظاظتها وزعارتها وصورها المنكرة فأخذوا بناصيتك يسحبون على وجهك على ملأ الخلق وهم ينظرون إلى اسوداد وجهك وإلى ظهور خزيك وأنت تنادى بالويل والثبور، وهم يقولون لك لا تدع اليوم ثبورًا واحدًا وادع ثبورًا كثيرًا.

وتنادى الملائكة ويقولون هذا فلان بن فلان كشف الله عن فضائحه ومخازيه ولعنه بقبائح مساوية فشقي شقاوة لا يسعد بعدها أبدا وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية من عباد الله أو طلبا للمكانة فى قلوبهم أوخوفا من الافتضاح عندهم، فما أعظم جهلك إذ تحترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله فى الدنيا المنقرضة، ثم لا تخشى من الافتضاح العظيم فى ذلك الملأ العظيم مع التعرض لسخط الله وعقابه الأليم والسياق بأيدى الزبانية إلى سواد الجحيم فهذه أحوالك وأنت لم تشعر بالخطر الأعظم وهو خطر الصراط.

أخذ الكتب

قال الله تبارك وتعالى: (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) (الحاقة:٢٨-٣٤).

وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ) (الانشقاق:٦) أي جاهد فى عملك (إِلَى رَبِّكَ) أى إلى لقاء ربك بعد الموت (كَدْحاً فَمُلاقِيهِ) أى: فأنت ملاق ربك فيجزيك على كدحك فى الدنيا إن كان خيرا فخير وإن كان شرا فشر.

وقد أخبر الله سبحانه عن كمال العباد عند أخذهم كتبهم وفيها جلاءاتهم فكتبهم فيها جلاء عما قدموه ونتيجة ما حصلوه فى الدنيا فهم بعد أخذها ما بين فرح مستبشر مسرور وما بين حزين كئيب موتور، يدعو بالويل والثبور.

قال تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو

ثُبُوراً وَيَصْلَى سَعِيراً إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً) (الانشقاق:٧-١٥).

ويتبين من الآيات السابقة أن الخلائق عند تناول الكتب على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: هم الآخذون كتبهم بأيمانهم وهم المؤمنون السعداء جعلنا الله تعالى منهم.

الصنف الثانى: الآخذون كتبهم بشمالهم وهم الذين لم يؤمنوا بالله العظيم ولم يحضوا على طعام المسكين، ويدخل تحت هذا الصنف عدة أصناف:

١- إن صنف المعطلة الذين عطلوا العالم عن صانعه واعتقدوا أن الأمر طبيعة وأن ليس للعالم خالق عليهم يدبره فهؤلاء لم يؤمنوا بالله العظيم فهم داخلون فى عموم الآية لأنهم لم يؤمنوا بوجود الله العظيم.

وهؤلاء محجوجون بالأدلة القاطعة ولسنا الآن نريد أن نخوض فى الرد عليهم حتى نوضح تلك البراهين ولكننا نأتى بنبذة لطيفة على طريق العجالة لعلها تنبه العاقل وتوقظ الغافل وذلك إننا نقول لمن يرى أن الأمر طبيعة وأن مستند العالم إنما هو الطبيعة نقول للطبيعى:

ما هو مفهوم الطبيعة عندك؟

وماذا تتصور من معنى الطبيعة التى أسندت تدبير العالم إليها، هل ذلك المفهوم للطبيعة أمر سلبى عدمى أم إيجابى وجودى؟

فإن قال: إن مفهوم الطبيعة والمعنى المتصور منها هو سلبى عدمى بمعنى أن العالم وجد بطبيعة حاله من العدم: قلنا فى الجواب: إن العالم أمر

وجودى والعدم هوعدم فكيف ينشأ عنه وجود؟ فإن حقيقة مفهوم العدم هى العدم فكيف يتصور فى العقل أن ينشأ عنها وجود؟!

وقد نبه القرآن الكريم العقلاء إلى هذه القضية فى قوله سبحانه: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) (الطور:٣٥)؟!

والمعنى أنهم شىء وجودى محقق الوجود فكيف يعقل أنهم أوجدوا من غيرشىء أى من غيرخالق واجب الوجود؟!

ولئن ادعوا أن الذى أوجدهم من عدمهم هو هم، أى أنهم هم الخالقون لأنفسهم: فهذا باطل.

فإنهم لو كانوا هم الذين خلقوا أنفسهم لوجب تقدم وجودهم على وجود أنفسهم، والحال أنهم قبل أن يخلقوا كانوا عدمًا، فلابد أن ينتهى الأمر إلى واجب الوجود الذى هو مُوجد ولا مُوجِدَ له فإنه الأحد الواحد وليس قبل الواحد واحد ولا أحد قبل الأحد، قال سبحانه (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) (الإخلاص:١) أى ولا أحد قبله ومن ادعى غير ذلك فليأت قبل الواحد العددى بواحد وإذا كان الواحد العددى لا واحد قبله فلاشك أن الواحد الحقيقى واجب الوجود الذى لا يقبل التعدد هو لا أحد قبله قطعا.

وإن قال: إن مفهوم الطبيعة هو أمر إيجابى وجودى بمعنى أنها هى ذات وجود وقوة وعلم وحكمة وأنها المدبرة لنظام العالم وأنها المتصرفة فى العوالم وأن من صفاتها كذا وكذا.

فيقال له: إن هذا المفهوم الذى فهمته من الطبيعة وهذه الصفات التى أثبتها للطبيعة هذا هو الله رب العالم وخالقه وبارئه ولكن رب العالمين لم

يسم نفسه بالطبيعة وإنما سمى نفسه بأنه هو الله تعالى وأن له الأسما الحسنى ولم يرض لنفسه غير الأسماء الحسنى التى تسمى بها لأن غير الأسماء الحسنى التى تسمى بها لا تليق بكماله بل توهم النقص.

قال الله تعالى: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ) (الأعراف: ١٨٠).

على أن لفظ الطبيعة هو وزن فعيلة فهى مفعولة مطبوعة وإن الله تعالى هو طابع الطبائع وخالقها.

٢- صنف المشركين الذين أشركوا مع الله تعالى إلهًا آخر فإنهم لم يؤمنوا بالله العظيم إيمانًا صحيحًا لائقًا بكماله سبحانه لأنه تعالى هو واحد لا شريك له.

٣- صنف المتكبرين على الله تعالى الذين أبوا واستكبروا أن يذعنوا لدينه وشرعه، ورأس هذه الطائفة إبليس عليه اللعنة فإنه أبى واستكبر عن الإذعان لأمر الله تعالى ولذلك كان من الكافرين.

وهذا فرعون وجنوده قال تعالى: (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ) (العنكبوت:٣٩) (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ) (القصص:٤٠-٤٢).

٤ - صنف المنافقين الذين أظهروا الإسلام وأضمروا الكفر فإنهم لم يؤمنوا بالله العظيم لأنهم استسلموا ظاهرا خوف القتل والسبى وحفظا لمالهم

أهلهم ولكن قلوبهم على قلب واحد من الأصناف الثلاثة الذين تقدم ذكرهم.

الصنف الثالث: من أوتى كتابه وراء ظهره فهم الذين أوتوا كتاب الله تعالى فى الدنيا فنبذوه وراءهم ظهريا واشتروا به ثمنا قليلا فإذا كان يوم القيامة قيل لأحدهم: خذ كتابك من وراء ظهرك.

وروى أبو داود عن عائشة رضى الله عنها أنها ذكرت النار فبكت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما يبكيك؟" فقالت: ذكرت النار فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال صلى الله عليه وسلم "أما فى ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحدا: عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل؟ وعند تطاير الصحف حتى يعلم أين يقع كتابه فى يمينه أم فى شماله أم وراء ظهره؟ وعند الصراط إذا وضع بين ظهرانى جهنم".

الميزان

قال الله تعالى: (وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ) (الأعراف:٨-٩).

وقال جل جلاله فى سورة الأنبياء: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) (الأنبياء:٤٧).

وقال عز وجل فى سورة المؤمنون (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ) (المؤمنون:١٠٢-١٠٣).

وقال تبارك وتعالى: (الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ) (القارعة:١-١١).

اعلم أن الميزان مشهد من مشاهد القيامة وإثبات أكيد أمام العباد لعدالة رب العباد، كما قال سبحانه: (هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (الجاثـية:٢٩).

وكما قال تبارك اسمه: (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ) (النور:٢٤-٢٥).

وكما قال عز وجل: (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (فصلت:١٩-٢١).

فالميزان دليل على العدالة المطلقة التى اتصف بها الحكم العدل سبحانه وتعالى.

يقول الإمام الغزالى رحمه الله تعالى:

لا تغفل عن الفكر فى الميزان وتطاير الكتب إلى الإيمان والشمائل، فإن الناس بعد السؤال ثلاث فرق: فرقة ليس لهم حسنة فيخرج من النار عنق أسود فيلقطهم لقط الطير للحب وينطوى عليهم ويلقيهم فى النار فتبتلعهم النار فينادى عليهم: شقاوة لا سعادة بعدها.

وقسم آخر لا سيئة لهم فينادى مناد: ليقم الحمادون لله على كل حال فيقومون ويسرحون إلى الجنة، ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله تعالى، وينادى عليهم: سعادة لا شقاوة بعدها.

ويبقى قسم ثالث وهم الأكثرون خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله تعالى أن الغالب حسناتهم أو سيئاتهم، ولكن يأبى الله إلا أن يعرفهم ذلك ليبين فضله عند العفو وعدله عند العقاب فتتطاير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات وينصب الميزان وتشخص الأبصار إلى الكتب أتقع فى اليمين أو فى الشمال؟ثم إلى لسان

الميزان أيميل إلى جانب السيئات أو جانب الحسنات؟ وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق.

وروى الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأسه فى حجر عائشة رضى الله عنها فنعس فذكرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها فنقط على خد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتبه وقال ما يبكيك يا عائشة؟

قالت ذكرت الآخرة. هل تذكرون أهليكم يوم القيامة، قال: والذى نفسى بيده فى ثلاثة مواطن فإن أحدا لا يذكر إلا نفسه: إذا وضعت الموازين ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم أيخف ميزانه أم يثقل وعند الصحف حتى ينظر أبيمينه يأخذ كتابه أو بشماله وعند الصراط ".

وعن أنس رضى الله عنه: "يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتى الميزان ويوكل به ملك فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق: سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا وإن خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا.

وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية و بأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار إلى النار".

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم – فى يوم – القيامة –: "إنه يوم ينادى الله تعالى فيه آدم عليه السلام فيقول له قم يا آدم فابعث بعث النار فيقول: وكم بعث النار"؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون. فلما سمع الصحابة ذلك أبلسوا حتى ما أوضحوا بضاحكة فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عند أصحابه قال: اعلموا أبشروا؛ فوالذى نفس

محمد بيده أن معكم لخليقتين ما كانتا مع أحد قط إلا كثرتاه مع من هلك من نى آدم وبنى إبليس. قالوا وما هما يا رسول قال: يأجوج ومأجوج فسرى عن القوم، فقال: اعلموا وأبشروا فوالذى نفس محمد بيده ما أنتم فى الناس يوم القيامة إلا كالشامة فى جنب البعير أو كالرقمة فى ذراع الدابة". أ. ه.

أما بعد فقد يسأل الكثير عن شكل الميزان، وهل الأعمال التى توزن ستتحول إلى أجسام أم أن الصحائف هى التى توزن إلى غير ذلك من قياس الغائب على الشاهد وقد أجمعت كلمة الحكماء على أن قياس الغائب على الشاهد باطل، كنا فى الدنيا نجد فى الموازين ما يختلف باختلاف الموازين فهذا ميزان للحرارة وذاك ميزان للماء وذلك ميزان للبضائع، وهكذا يختلف الميزان باختلاف الموزون، فهل لنا بعد ذلك أن نسأل عن حقيقة ميزان الأعمال يوم القيامة؟ إن الذى خلق الموازين بأنواعها والموزونات على اختلاف أشكالها له ميزان يزن به العمل يعلمه هو شكله وحقيقته مفوضان إلى علمه الذى أحاط بكل شىء.

يقول الأستاذ محمد سعيد البوطى فى كتابه "كبرى اليقينيات الكونية" ما نصه:

الميزان والوزن كلاهما مما أخبر الله عنه فى محكم كتابه بعبارات واضحة صريحة لا تحتمل التأويل فهو حق يجب الإيمان به كما أخبر.

قال الله عز وجل (وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقّ) (الأعراف: ٨).

وقال: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) (الأنبياء: ٤٧).

وقال: (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ) (المؤمنون:١٠٢-١٠٣).

وعلينا أن نمسك - كما قال العلماء - عن تعيين نوع هذا الميزان وجوهره وكيفيته. وهل هو ميزان واحد للخلائق كلهم، أم موازين كثيرة؟

فكل ذلك مما لا سبيل إلى القطع به، ولكنا نؤمن بما أخبر الله عنه ونقول أنه كما أخبر جل جلاله دون أن نؤول أو نقحم عقولنا وأخيلتنا في حمل هذه الآيات على مجاوز أو استعارة أو نحو ذلك.

أما كيفية وزن الأعمال وهي أمور اعتبارية فقد ورد ما دل على أنها تخلق بشكل أجسام لها ثقل وأبعاد من ذلك قوله تعالى:

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ) (الأنعام:٣١).

ولكنا نكل كيفية الوزن وعلم ذلك تفصيلا إلى الله عزوجل وبذلك تسلم من حاجة الخوض في هذا البحث على نحو ما بحث المعتزلة ونسلم من الحاجة إلى التأويل والتحوير.

أما: لماذا يكون الوزن وما الحاجة إليه - والله أعلم بالأعمال وكميتها وأهميتها - فليس إلى شيء من ذلك حاجة الإلهية - كما لا يخفى - ولكن لما جرت سنة الله في تنظيم هذه الحياة الدنيا وفي إدارة شئون الإنسان على تحكيم نظام الأسباب والمسببات وتعويد العقل والخيال على ربط كل أثر بمؤثره وكل موجود بعلته - اقتضت الحكمة أن ينسحب هذا النظام نفسه

على وقائع ما بعد النشأة الثانية والحياة الأخرى وأن يتلقى الإنسان الخبر عنها بنفس الطريقة التى ألفها عقله وتشربها خياله.

هذا شيء. والشيء الثانى أن فى تجسيد هذه الأمور الاعتبارية واستحضار الميزان والوزن لها بيانا للإنسان أن مضمون الحياة الثانية ليس إلا انعكاسا دقيقا لمضمون الحياة الأولى تماما، كما يكون موسم الحصاد انعكاسا دقيقا لموسم البذر والزرع، ولا يتضح هذا المعنى للإنسان اتضاحًا تامًا لو قيل له إن الخالق جل جلاله يثيب كلا أو يعاقبه حسب ما استقر فى علمه جل جلاله من سابق كسبه وأعماله دون أن يطلعه على تلك الأعمال ويذكره بها ويضعها ماثلة بين عينيه ليقارن بينها وبين نتيجتها الماثلة أيضا أمامه فى ذلك اليوم فلذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يقام للأعمال ميزان حسى وأن تتجسد الأعمال بذاتها أو بواسطة صحائفها بل وأن تنطق الجوارح والأعضاء نفسها بما كانت قد اجترحته من الآثام حتى تنطق هذه الأعمال نفسها بحقيقة العدل والجزاء وربط مقدمات الحياة الدنيا بنتائج يوم القيامة.

الحساب

اعلم أخى وفقنا الله وإياك أن الحساب هو العنصر الأهم فى ذلك اليو وأنه لا بد منه فهذا يوم تظهر فيه العدالة فى أسمى معانيها يقال فيه للمظلوم تقدم ويقال فيه للظالم أيها الظالم لا تتكلم: (هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْ فَكِيدُونِ) (المرسلات:٣٦-٣٩).

هذا يوم يقول الله فيه: (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (غافر:١٧)

ويقول فيه: (فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَ كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) (آل عمران:٢٥).

هذا يوم يخبرنا الله عنه فيقول: (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) (النحل:١١١).

هذا يوم يقول الله عنه: (وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ) (الزمر:٦٩-٧٠).

يرحم الله الإمام على بن أبى طالب عندما جاءه رجل يطلب منه أن يكتب له عقد شراء بيته ونظر الإمام إلى الرجل فوجد الدنيا قد تربعت على سويداء قلبه، فأراد الإمام أن يلقنه درسا يخفف فيه غلواء المادة التى امتزجت بالدم فكادت تحوله من حمرته القانية إلى سواد حالك وتلك هى الدنيا إذا أقبلت، فهى إذا حلت أوحلت وإذا جلت أوجلت وإذا كست أوكست

إذا أينعت نعت وإذا أوجفت جفت وكم من مريض عدنا وما عدنا وكم من
ور تبنى وما تبنا وكم من مقلك رفعت له علامات فلما علا مات.

كتب الإمام عقد الشراء كما يلى: بعدما سمى الله وأثنى على رسوله
ال:

أما بعد فقد اشترى ميت من ميت دارًا تقع فى بلد المذنبين وسكة
لغافلين، لها أربعة حدود الحد الأول ينتهى إلى الموت والثانى ينتهى إلى
لقبر والثالث ينتهى إلى الحساب والرابع ينتهى إما إلى الجنة وإما إلى النار
باغتاظ الرجل من هذه العبارات وصار كظيم القلب، فقال له الإمام يا هذا:

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت ... أن السعادة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها ... إلا التى كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه ... وإن بناها بشر خاب بانيها
أين الملوك التى كانت مسلطنة ... حتى سقاها بكأس الموت ساقيها
أموالنا لذى الميراث نجمعها ... ودورنا لخراب الدهر نبنيها
كم من مدائن فى الآفاق قد بنيت ... أمست خرابا وأفنى الموت أهليها
إن المكارم أخلاق مطهرة ... الدين أولها والعقل ثانيها
والحلم ثالثها والعلم رابعها ... والجود خامسها والفضل ساديها
والبر سابعها والشكر ثامنها ... والصبر تاسعها والليل باقيها
والنفس تعلم أنى لا أصادقها ... ولست أرشد إلا حين أعصيها
لكل نفس وإن كانت على وجل ... من المنية آمال تقويها
النفس تنشرها والموت يقنصها ... والدهر يبسطها والقبر يطويها
لا تركنن إلى الدنيا وما فيها ... فالموت لا شك يفنينا ويفنيها

واعمل لدار غدا رضوان خازنها والجـار أحمـد والرحمن ناشيء
قصـورها ذهـب والمسك طينتها والزعفـران حشـيش نابت فيء

جاء فى كتاب الإيمان بعوالم الآخرة عن الحساب كلمة بدأها المؤلف بقوله تعالى: (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) (الغاشية:٢٥-٢٦) وعلق على هاتين الآيتين بقوله:

فإياب العباد كلهم - أى رجوعهم إلى ربهم ثم إن حسابهم عليه سبحانه فهو الذى يحاسبهم يوم الحساب.

وقد جاءت الآيات الكثيرة فى ذكر الحساب وأهل يوم الحساب وفى مدح الذين يستعدون ليوم الحساب ويخافونه وفى ذم الذين نسوا يوم الحساب ولم يخشوا الحساب.

قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ) (الرعد:٢١) أى: يخافون المناقشة فى الحساب على النقير والقطمير والشىء الكبير والحقير وفى هذا مدح للواصلين ما أمر الله أن يوصل فيما بينهم وبين ربهم وبينهم وبين رسولهم صلى الله عليه وسلم وبينهم وبين سائر عباد الله تعالى، فهم الواصلون وهم أهل الخشية بالغيب وهم يخافون سوء الحساب مع أنهم على قدم فى التقوى ودرجة كبيرة فى العمل الصالح والإخلاص وهو شأن الواصلين المقربين - ألحقنا الله تعالى بهم وقال الله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) (ص: ٢٦).

وفى هذا تحذير من نسيان يوم الحساب ووعيد لمن نسيه وقد بين حانه أن محاسبته لعباده سوف تأتى على جميع الأعمال: العلانية لسرية والجسمية والقلبية والبادية الظاهرة والنفسية الخفية.

قال الله تعالى: (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي سِكُمْ أَوِ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ لَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (البقرة:٢٨٤) .

فهو سبحانه الذى له السماوات والأرض وما فيهن ملكا وملكا فذواتها أعيانها مملوكة له وحده وهو الملك المطلق المتصرف فيها كما يشاء قتضى حكمه فهو الفعال لما يريد والكل له عبيد، وهو الذى يقضى يحكم ولا معقب لحكمه ولا راد لأمره جل وعلا، بل هو الغالب على ره، أى هو الغالب على تنفيذ أمره وإمضاء حكمه ولا مانع له ولا عقب، وهو الذى يعلم السر وأخفى ويعلم ما يسرون وما يعلنون وما بدون وما يخفون من خفايا نفوسهم وخبايا قلوبهم وسوف يحاسبهم على بميع ذلك فليخافوا وليخشوا الحساب عند رب الأرباب ثم بعد الحساب غفر لمن يشاء وهم الذين فيهم أهلية لأن يتفضل عليهم بالمغفرة، ويعذب ن يشاء وهم الذين ليسوا أهلا للتفضيل بالغفران وذلك عائد لعلمه حكمته، فإنه هو العليم الحكيم وهو على كل شىء قدير، ومن ذلك قدرته على المغفرة لهذا والتعذيب لهذا لا يعجزه شىء من ذلك.

فالأعمال القلبية من الحب والبغض والحسد والحقد والنيات الحسنة والسيئة والهمم والعزائم القلبية فى الخير والشر كل أولئك يحاسب به العبد

يوم القيامة فيؤجر على خيرها ويعاقب على شرها ما لم تشمله المغف بأسباب يعلمها الله تعالى.

ويدل على أن أعمال القلوب يحاسب بها العبد يوم القيامة فى الخ والشر: ما رواه الترمذى والإمام أحمد عن أبى كبشة الأنمارى رضى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ثلاثة أقسم عليهن وأحدث حديثا فاحفظوه:

"ما نقص مال من صدقة، وما ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده ا بها عزًا، وما تواضع عبد إلا رفعه الله تعالى".

قال: وأحدثكم حديثا فاحفظوه: "إنما الدنيا لأربعة نفر: رجل آتاه الله ما وعلما فهو يتقى فى ماله ربه ويصل فيه رحمه ويعلم أن لله فيه حقا فه فى أعلى المنازل ورجل آتاه الله علما ولا يؤته مالا يقول لو أن لى مثل فلان – أى صاحب العالم صاحب المال – لعملت مثله فهو بنيته وأجرهم سواء، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته الله علما فهو يخبط فى ماله لا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه، فهذا فى أخبث المنازل ورجل لم يؤته مالا ولا علما يقول: لو أن لى مثل فلان – أى صاحب المال الشقى – لعملت مثل أى من ارتكاب الشهوات المحرمة – قال صلى الله عليه وسلم: فهو بنيته ووزرهما سواء".

فالنيات القلبية لها اعتبارها فى الحساب والثواب والعقاب وكذلك الهمم كما فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة وإن هم بها فعملها كتبت له عشر حسنات إلى

عمائة إلى أضعاف كثيرة. وإن هم بسيئة فلم يعملها ــ أى:خوفا من الله الى كما فى رواية: وإن تركها من أجلى ــ كتبت له حسنة كاملة وإن هم ا فعملها كتبت له سيئة واحدة" وكذلك الإرادات العازمة فإن الإنسان اسب عليها.

روى الشيخان عن الأحنف بن قيس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: ذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار" قيل: يا رسول الله ذا القاتل فما بال المقتول، قال: إنه أراد قتل صاحبه.

أى: ولكن سبق عليه فلم يحقق إرادته.

وفى رواية أنه كان حريصا على قتل صاحبه أى فبسبب حرصه على ل صاحبه كان من أهل النار ولا شك أن الحرص من جملة أعمال قلوب، فالحرص القوى على الشىء يدين صاحبه يوم القيامة وكذا الإرادة.

وهكذا الحب والبغض فإن العبد يحاسب عليها يوم القيامة فإن كان سبب لحب والبغض و متعلقهما مما أمره الشارع به ورضيه ففيه الثواب كمحبة لمؤمنين وبغض الكافرين ونحو ذلك.

قال صلى الله عليه وسلم: "من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان" رواه أبو داود، وإن كان سببهما ومتعلقهما غير شرعى ففيهما العقاب.

وأما الوساوس والمخاطر السريعة وحديث النفس السىء الذى لم يوطن الإنسان نفسه عليه ولم يهم به ولم يعزم صاحبه على إظهاره إلى الوجود

بل يكرهه ويدفعه عن نفسه فلا يندفع: فقد نص العلماء على أنه معفو ، بدليل قوله تعالى: "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها".

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها ما يعملوا به أو يتكلموا به" وفى رواية: "ما وسوست به صدورها".

وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه أن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا: "يا رسول الله إن أحدنا ليجد فى نفسه ما لا يحترق حتى يصير حمة أو يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به".

ولمسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن ناسا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم سألوه: إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ! قال "أو قد وجدتموه"؟ قالوا: نعم. قال: "ذلك صريح الإيمان" ورواه أبو داود وفى رواية: قال صلى الله عليه وسلم "الحمد لله الذى رد كيده إلى الوسوسة".

فما يمر على القلب من خواطر رديئة وما يعترى الإنسان من وساوس سيئة وهو ينكرها ولا يرتضيها فهو غير مؤاخذ عليها، بل إن إنكاره لها وتأذيه منها وألم نفسه بسببها فى هذا دليل على مخض إيمانه وصراحته، وإن قلبه عامر بالإيمان، إذ لو كان قلبه غير حى بالإيمان لا ستسلم لتلك الوساوس السيئة وانشرح صدره لها ولم يضق بها ذرعا. وعلى كل حال فتلك الوساوس التى تعترى المؤمن هى عارضة وقد تمر على بعض الناس

نها زائلة عما قريب، فلا ينبغى أن يلتفت إليها بل يلجأ إلى الله تعالى لمرح ما هنالك وراء ظهره ويتعوذ بلله العظيم فإنها لا تضره.

هذا وإن يوم الحساب شأنه كبير وأمره خطير إلا من تغمده الله بغفرانه رضوانه. قال تعالى مخبرا عن دعاء الخليل عليه السلام لينبه العباد إلى ل موقف الحساب: (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) راهيم:٤١) اللهم آمين.

وأول ما يحاسب عليه العبد من الأعمال المتعلقة بحقوق الله تعالى سلاة، قال الإمام الترمذى فى سننه: باب ما جاء أن أول ما يحاسب به بد يوم القيامة الصلاة ثم أسند إلى أبى هريرة رضى الله عنه قال: معت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن أول ما يحاسب عليه بد يوم القيامة من عمله الصلاة فإن صلحت فقد أفلح وأنجح وإن فسدت د خاب وخسر وإن انتقص من فريضته شيئا قال الرب عز وجل ملائكة: انظروا هل لعبدى من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة يكون سائر عمله على ذلك.

وأول ما يحاسب عليه العبد من الأعمال المتعلقة بحقوق العباد: الدماء قد روى البخارى بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم: "أول ما يقضى بين الناس بالدماء".

المحاسبة على الزكاة والتشديد على مانعها فى الحساب

اعلم أيها الأخ المسلم أن الزكاة أمرها عظيم فى دين الله تعالى وأ عقاب تركها شديد يوم لقاء الله تعالى.

إنها ثالث أركان الإسلام وقد قرنها الله تعالى بالصلاة فى آيات كثير وقد وصف المؤمنين بفعلهما ونزههم عن تركهما فقال سبحانه: (الَّذِي يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) (البقرة:٣).

وقال جل شأنه: (هُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِين الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) (النمل:٢-٣) .

وقال تعالى: (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (التوبة:١١).

ووصف سبحانه الكفار بأنهم لا يؤتون الزكاة، قال تعالى: (وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) (فصلت:٦-٧)

وقال فى أهل النار من المجرمين: (قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ) (المدثر:٤٣-٤٥).

فترك الصلاة ومنع الزكاة ليس من صفات المؤمنين، بل إن مانع الزكاة هو فى خطر على دينه أن يكون منافقًا لما جاء فى الحديث عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قـــــال: "الزكاة قنطرة الإسلام".

وقال: "إن تمام إسلامكم أن تؤدوا زكاة أموالكم".

وقال صلى الله عليه وسلم "ظهرت لهم الصلاة فصلوها" وفى رواية خفيت لهم الزكاة فأكلوها أولئك هم المنافقون".

وهذا إخبار عما يقع بعده صلى الله عليه وسلم فى هذه الأمة، فأداء سلم زكاته برهان على صدق إيمانه كما جاء فى صحيح مسلم أن النبى لى الله عليه وسلم قال : "والصدقة برهان" والمراد بالصدقة هنا الزكاة ى برهان على إيمان فاعلها.

وفى ترك الزكاة خطر على دين تاركها أيضًا، ومنع الزكاة خطر على لاة مانعها يضر بصلاته.

فعن بن مسعود رضى الله عنه قال: أمرنا – أى أمرنا صلى الله عليه سلم – بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ومن لم يزك فلا صلاة له.

ولذلك كان تارك الزكاة ملعونا على لسان رسول الله صلى الله عليه سلم كما جاء عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال: آكل الربا و مؤكله شاهداه إذا علماه والواشمة والمستوشمة، ولاوي الصدقة – أى الممتنع من اء الزكاة – والمرتد إعرابيًا بعد الهجرة: ملعونون على لسان محمد صلى له عليه وسلم يوم القيامة.

وروى الأصبهانى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا ومؤكله وشاهده وكاتبه والواشمة والمستوشمة ومانع الصدقة– أى الزكاة – والمحلل والمحلل له.

ومانع الزكاة يلقى العذاب حين يحضره الموت وتتوالى عليه المآ
والمخازي والحسرات ويتمنى الرجعة إلى الدنيا ليؤدى ما عليه د
يحتضر.

قال الله تعالى: (وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَو
فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِي
(المنافقون: ١٠).

ومانع الزكاة يعذب فى قبره كما جاء فى رواية البزار وغيره أنه صا
الله عليه وسلم مر على قوم على أدبارهم رقاع أوعلى أقبالهم رق
يسرحون كما تسرح الأنعام إلى الضريع والزقوم ورطف جهنم، قال:
هؤلاء يا جبريل قال: هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلم
الله وما الله بظلام للعبيد".

وتارك الزكاة يعذب فى مواقف الآخرة ويعذب فى حسابه فيشدد علي
ويعذب فى نار جهنم.

قال صلى الله عليه وسلم: "ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤد
منهما حقهما إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمى علي
فى نار جهنم فيكوى بها جبينه وجنبه وظهره، كلما بردت أعيدت له، فى
يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله، إم
إلى الجنة أو إلى النار".

قيل: يا رسول الله فالإبل؟

قال صلى الله عليه وسلم: ولا صاحب إبل لا يؤدى منها حقها – ومن ها حلبها يوم وردها – إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أوفر كانت، لا يفقد منها فصيلا واحدا تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها، كلما عليها أولاها رد عليه أخراها فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنه ى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة أو إلى النار".

قال: يا رسول الله فى البقر والغنم؟

قال صلى الله عليه وسلم: "ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدى حقها إلا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أوفر ما كانت لا يفقد منها شيئا ليس ها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، كلما عليها أولاها رد عليه أخراها فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار".

وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه ،: ما من أحد لا يؤدى زكاة ماله إلا مثل له يوم القيامة شجاع أقرع حتى لوق به عنقه . ثم قرأ علينا النبى صلى الله عليه وسلم مصداقه من كتاب ه تعالى: (وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ ْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (آل عمران: ١٨٠).

وأما تشديد الحساب على تارك الزكاة: فقد جاء عن على رضى الله نه وكرم الله وجهه أنه قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى فرض على أغنياء مسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا

وعروا إلا بما يصنع أغنياؤهم، إلا وإن الله يحاسبهم حسابا شديدا ويعذبه عذابا أليما".

ومن هذا الحديث يعلم أن الله تعالى الحكيم شرع مقادير الزكاة وجعلها وافية كافية لمهام الفقراء وحاجاتهم وإن الفقراء إذا أجهدهم الفقر وجاعوا وعروا بسبب أنهم اعترتهم ضائقة فذلك من تقصير الأغنياء فى دفع ما أوجب الله تعالى للفقراء، فإن الموازنة الشرعية هى كافية وافية فليطبقوها كما أمرهم الله تعالى وليرعوها حق رعايتها، فسوف يحاسبهم الله تعالى على ذلك، وسوف يشدد الحساب على من قصر فى ذلك فلم يؤد ما أوجب الله تعالى عليه كاملا ومن نوقش الحساب عذب لا محالة.

هذا وإن الزكاة حق للفقراء فى مال الأغنياء يجب عليهم أن يدفعوها إليهم على أنها حق لهم عندهم، قال تعالى: (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) (المعارج:٢٤-٢٥).

ويقول النبى صلى الله عليه وسلم: "ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة، يقولون ربنا ظلمونا حقوقنا التى فرضت لنا عليهم !! فيقول الله عز و جل: وعزتى وجلالى لأدنينكم - أى لأقربنكم - ولأباعدنهم، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: (والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم).

ومانع الزكاة يعذب فى النار إلا إذا غفر الله له ورحمه.

فعن أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مانع الزكاة يوم القيامة فى النار".

فضل التوبة

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ كُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ يَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (التحريم:٨).

نظرا لما علمناه من الحساب وما سيجرى على العباد من شدائد أردنا ا الموضوع أن نذكر الغافلين وننادى على المعرضين ونوقظ النائمين بة الشاردين إلى الخير العميم لهم فى الدنيا والآخرة، ندعوهم إلى أن وا يد الصلح مع الله، فالدنيا ساعة اجعلها طاعة والنفس طماعة عودها اعة وإياك والتسويف فإن الموت يأتى بغتة قال صلى الله عليه وسلم: "يا ا الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنى أتوب إلى الله وأستغفره فى اليوم ة مرة".

ولبيان ما للتوبة من فضل ننصت إلى ما قاله حجة الإسلام الإمام زالى رضى الله عنه فى هذا المقام ونكون بذلك القوس باريها.

يقول رحمه الله فى بيان قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله بة نصوحا) النصوح الخالص لله تعالى خاليا عن الشوائب مأخوذ من صح ويدل على فضل التوبة قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ تَطَهِّرِينَ) (البقرة:٢٢٢) وقال عليه السلام "التائب حبيب الله و التائب من ذنب كمن لا ذنب له".

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لله أفرح بتوبة العبد المؤمن ر
رجل نزل فى أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوض
رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الم
والعطش أو ما شاء الله قال: ارجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حت
أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده علي
زاده وشرابه، فالله تعالى أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته".

وفى بعض الألفاظ قال: من شدة فرحه إذا أراد شكر الله: أنا ربك وأن
عبدى.

ويروى عن الحسن قال: لما تاب الله عز وجل على آدم عليه السلا
هنأته الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام، فقالا: يا آ
قرت عينك بتوبة الله عليك فقال آدم عليه السلام: يا جبريل فإن كان ب
هذه التوبة سؤال فأين مقامى؟

فأوحى الله إليه: يا آدم ورثت ذويك التعب والنصب وورثتهم التوبا
فمن دعانى منهم لبيته كما لبيتك ومن سألنى المغفرة لم أبخل عليه لأن
قريب مجيب يا آدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين
ودعاؤهم مستجاب.

والأخبار والآثار فى ذلك لا تحصى، والإجماع منعقد من الأمة على
وجوبها؛ إذ معناه العلم بأن الذنوب والمعاصى مهلكات ومبعدات عن الله
تعالى، وهذا داخل فى وجوب الإيمان، ولكن قد تدهش الغفلة عنه. فمعنى
هذا العلم إزالة هذه الغفلة ولا خلاف فى وجوبها ومن معانيها ترك
المعاصى فى الحال والعزم على تركها فى الاستقبال وتدارك ما سبق من

صير فى سابق الأحوال، وذلك لا يشك فى وجوبه. وأما التندم على ما ق والتحزن عليه فواجب وهو روح التوبة وبه تمام التلاقى فكيف لا ين واجبا؟! بل هو نوع ألم يحصل لا محالة عقب حقيقة المعرفة بما ن من العمر وضاع فى سخط الله، فإن قلت: تألم القلب أمر ضرورى لا خل تحت الاختيار، فكيف يوصف بالوجوب؟

فاعلم أن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله سبيل إلى تحصيل به، وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب لا بمعنى أن العلم يخلقه بد ويحدثه فى نفسه، فإن ذلك محال، بل العلم والندم والفعل والإرادة لقدرة الكل من خلق الله وفعله (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) (الصافات:٩٦).

هذا هو الحق عند ذوى الأبصار وما سوى هذا ضلال، فإن قلت: يس للعبد اختيار فى الفعل والترك؟ قلنا: نعم، وذلك لا يناقض قولنا: إن ل من خلق الله تعالى بل اختياره أيضا من خلق الله، والعبد مضطر فى ختيار الذى له فإن الله إذا خلق اليد الصحيحة وخلق الطعام اللذيذ وخلق شهوة للطعام فى المعدة وخلق العلم فى القلب بأن هذا الطعام يسكن شهوة وخلق الخواطر المتعارضة فى أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع ه يسكن الشهوة؟ وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا؟ ثم خلق علم بأنه لا مانع ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجزم الإرادة الباعثة على تناول، فانجزام الإرادة بعد تردد الخواطر المتعارضة وبعد وقوع الشهوة طعام يسمى اختيارا ولابد من حصوله عند تمام أسبابه فإذا حصل انجزام إرادة بخلق الله تعالى إياها تحركت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لا حالة إذ بعد تمام الإرادة والقدرة يكون حصول الفعل ضروريا فتحصل

الحركة فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزام الإرادة، وه
أيضا من خلق الله.

وانجزام الإرادة يحصل بعد صدق الشهوة والعد بعدم الموانع وه
أيضا من خلق الله تعالى، ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض
ترتيبا جرت به سنة الله تعالى فى خلقه (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا
(الأحزاب: ٦٢) فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة ما لم يخلق فيـ
صفة تسمى قدرة وما لم يخلق شهوة وميلا فى النفس ولا ينبعث هذا الميـ
انبعاثا تاما ما لم يخلق، علمًا بأنه موافق للنفس إما فى الحال أو فى المآ
ولا يخلق العلم أيضا إلا بأسباب أخر ترجع إلى حركة واردة وعلم. فالعـ
والميل الطبيعى أبدا يستتبع الإرادة الجازمة والقدرة.

والإرادة أبدا تستردف الحركة وهكذا الترتيب فى كل فعل والكل مـ
اختراع الله، تعالى ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض فلذلك يجب تقد
البعض وتأخر البعض كما لا تخلق الإرادة إلا بعد العلم ولا يخلق العلم إ
بعد الحياة ولا تخلق الحياة إلا بعد الجسم فيكون خلق الجسم شرطا لحدوث
الحياة، لا أن الحياة تتولد من الجسم ويكون خلق الحياة شرطا لخلق العلم
لا أن العلم يتولد من الحياة، ولكن لا يستعد المحل لقبول العلم إلا إذا كار
حيا ويكون خلق العلم شرطا لجزم الإرادة، لا أن العلم يولد من الإراد
ولكن لا يقبل الإرادة إلا جسم حى عالم ولا يدخل فى الوجود إلا ممكن
وللإمكان ترتيب لا يقبل التغير لأن تغييره محال، فمهما وجد شرط
الوصف استعد المحل به لقبول الوصف فحصل ذلك الوصف من الوجود
الإلهى والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد ولما كان للاستعداد بسبب

روط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب، والعبد رى هذه الحوادث المرتبة وهى مرتبة فى قضاء الله تعالى الذى هو د كلمح البصر ترتيبا كليا لا يتغير وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا داها وعنه العبارة بقوله تعالى: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) (القمر:٤٩).

وعن القضاء الكلى الأزلى العبارة بقوله تعالى: (وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ حٍ بِالْبَصَرِ) (القمر:٥٠).

وأما العباد فإنهم مسخرون تحت مجارى القضاء والقدر ومن جملة در خلق حركة فى يد الكاتب بعد خلق صفة مخصومة فى يده تسمى درة وبعد خلق ميل قوى جازم فى نفسه يسمى القصد وبعد علم بما إليه له يسمى الإدراك والمعرفة فإذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور أربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير سبق أهل عالم الملك لشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت وقالوا يا أيها الرجل قد حركت ورميت وكتبت ونودى من وراء حجاب الغيب وسرادقات ملكوت: (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى) (الأنفال: ١٧) وما قتلت ، قتلت ولكن (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ) (التوبة: ١٤). وعند هذا تتحير قول القاعدين فى بحبوحة عالم الشهادة، فمن قائل إنه جبر محض ومن ائل إنه اختراع صرف ومن متوسط مائل إلى أنه كسب، ولو فتح لهم واب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملكوت لظهر لهم أن كل واحد سادق من وجه وأن القصور شامل لجميعهم فلم يدرك واحد منهم كنه هذا لأمر ولم يحط علمه بجوانبه وتمام علمه ينال بإشراق النور من كوة نافذة

إلى عالم الغيب وأنه تعالى: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ ، ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) (الجـن:٢٦-٢٧).

وقد يطلع على الشهادة من لم يدخل فى حيز الارتضاء ومن حر سلسلة الأسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناط سلسل بمسبب الأسباب، انكشف له سر القدر وعلم علما يقينا أن لا خالق إلا ، ولا مبدع سواه.

فإن قلت: قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختر والكسب إنه صادق من وجه وهو مع صدقه قاصر وهذا تناقض فكيف يمكن فهم ذلك وهو يمكن إيصال ذلك إلى الأفهام، فاعلم أن جماعة م العميان قد سمعوا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل وما كان قط شاهدوا صورته ولا سمعوا اسمه فقالوا: لابد لنا من مشاهدته ومعرفة باللمس الذى نقدر عليه فطلبوه، فلما وصلوا إليه لمسوه فوقع يد بعض العميان على رجليه ووقع يد بعضهم على نابه ووقع يد بعضهم على أُذُنه فقالوا قد عرفناه فلما انصرفوا سألهم بقية العميان فاختلفت أجوبتهم، فقال الذى لمس الرجل إن الفيل ما هو إلا مثل أسطوانة خشنة الظاهر، إلا أنه ألين منها، وقال الذى لمس الناب ليس كما يقول، بل هو صلب لا لين فيه وأملس لا خشونة فيه وليس فى غلظ الأسطوانة أصلا، بل هو مثل عمود.

وقال الذى لمس الأذن لعمرى هو لين وفيه خشونة فصدق أحدهما فيه ولكن قال: ما هو مثل عمود ولا هو مثل أسطوانة وإنما هو جلد عريض غليظ، فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه، إذ أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل ولم يخرج واحد فى خبره عن وصف الفيل، ولكنهم

لتهم قصدوا عن الإحاطة بكنه صورة الفيل، فاستبصر بهذا المثال تبر به، فإنه مثال أكثر ما اختلف الناس فيه، وإن كان هذا كلاما يناطح م المكاشفة وليس ذلك من عرضنا.

ويستطرد الإمام الغزالى فيبين لنا أن التوبة واجبة على الفور، فيقول: وجوبها على الفور فلا يستراب فيه؛ إذ معرفة كون المعاصى مهلكات نفس الإيمان وهو واجب على الفور والمقتضى عن وجوبه هو الذى فه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه، فإن هذه المعرفة ليست من م المكاشفات التى لا تتعلق بعمل، بل هى من علوم المعاملة، وكل علم د ليكون باعثا على عمل فلا يقع التقصى عن عهدته ما لم يصر باعثًا ه، فالعلم بضرب الذنوب إنما أريد ليكون باعثا على تركها فمن لم كها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان وهو المراد بقوله عليه الصلاة سلام: "لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن".

وما أراد به نفى الإيمان الذى يرجع إلى علوم المكاشفة كالعلم بالله حدانيته وصفاته وكتبه ورسله فإن ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصى وإنما د به نفى الإيمان لكون الزنا مبعدا عن الله تعالى موجبا للمقت كما إذا ، الطبيب: هذا سم فلا تتناوله فإذا تناوله يقال تناول وهو غير مؤمن لا نى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيبًا وغير مصدق به بل راد أنه غير مصدق بقوله: إنه سم مهلك فإن العالم بالسم لا يتناوله سلا فالعاصى بالضرورة ناقص الإيمان وليس الإيمان بابا واحدا بل هو ب وسبعون بابا أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناه إماطة الأذى عن طريق ومثاله قول القائل: ليس الإنسان موجودا واحدا بل هو نيف

وسبعون موجودا أعلاها القلب والروح وأدناها إماطة الأذى عن البشر يكون مقصوص الشارب مقلوب الأظافر نقى البشرة عن الخبث حتى يت عن البهائم المرسلة الملوثة بأرواثها المستكرهة الصور بطول مخا وأظلافها وهذا مثال مطابق؛ فالإيمان كالإنسان وفقد شهادة التوحيد يو البطلان بالكلية كفقد الروح والذى ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة كإنسان مقطوع الأطراف مفقوء العينين فاقد لجميع أعضائه الباط والظاهرة لا أصل الروح.

كما أن من هذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الروح الضع المنفردة التى تخلف عنها الأعضاء التى تمدها وتقويها فكذلك من ليس إذًا أصل الإيمان وهو مقصر فى الأعمال قريب من أن تقتلع شجرة إيم إذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للإيمان فى مقدمة قدوم ملك المو ووروده فكل إيمان لم يثبت فى اليقين أصله ولم تنتشر فى الأعمال فرو لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك، الموت وخي عليه سوء الخاتمة لا ما يسقى بالطاعات على توالى الأيام والساعات حـ رسخ وثبت وقول العاصى للمطيع: إنى مؤمن كما أنك مؤمن كقول شج القرع كشجرة الصنوبر: أنا شجرة وأنت شجرة وما أحسن جواب شج الصنوبر إذ قالت ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت ري الخريف فعند ذلك تنقطع أصولك وتتناثر أوراقك وينكشف غرور بالمشاركة فى اسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار: وسوة ترين إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار؟

هذا أمر يظهر عند الخاتمة وإنما انقطع نياط العارفين خوفا من
ى الموت ومقدماته الهائلة التى لا يثبت عليها إلا الأقلون؛ فالعاصى
كان لا يخاف الخلود فى النار بسبب معصيته كالصحيح المنهمك فى
وات المضرة إذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته وأن الموت غالبا
ع فجأة فيقال له: الصحيح يخاف المرض ثم إذا مرض خاف الموت
ك العاصى يخاف سوء الخاتمة ثم إذا ختم له بالسوء – والعياذ بالله –
ب الخلود فى النار؛ فالمعاصى للإيمان كالمأكولات المضرة للأبدان فلا
، تجتمع فى الباطن حتى تغير مزاج الأخلاط وهو لا يشعر بها إلى أن
. المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة فكذلك المعاصى، فإذا كان
ئف من الهلاك فى هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم وما
ره من المأكولات فى كل حال وعلى الفور فالخائف من هلاك الأبد
، بأن يجب عليه ذلك وإذا كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيأ
جع عن تناوله بإبطاله وإخراجه عن المعدة على سبيل الفور والمبادرة
يا لبدنه المشرف على هلاك لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا الغانية فمتناول
وم الدين وهى الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك
كن مادام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر، فإن المخوف من هذا السم
ت الآخرة الباقية التى فيها النعيم المقيم والملك العظيم وفى فواتها نار
حيم والعذاب المقيم الذى تنصرم أضعاف أعمار الدنيا دون عشر عشير
ه؛ إذ ليس لمدته آخر البته فالبدار البدار إلى التوبة.

وبعد، فنسأل الله أن يرزقنا علمًا نافعًا ورزقًا واسعًا وشفاءً من كل داء،
نا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب.

فى رحاب التفسير

ظل الداعية الإسلامي الشيخ عبد الحميد كشك لأعوام عديدة يلتقى
ابه من المسلمين، من فوق منبره فى مدرسة محمد صلى الله
، وسلم، فى خطب الجمعة، وفى دروسه وفتاويه التى كانت تشغل
أيام الأسبوع، فتنشرح الصدور، وتصفو الأفئدة، وتتطهر النفوس
نذى العقول والأرواح... وتتنزل السكينة والرحمة..

واشتهر مجلس الشيخ، وذاع صيته حتى بلغ أفاق الأرض إلى
ن السماء.. وقصده المسلمون من القاهرة وما حولها من مدن
ى.. وأتاه الزائرون من أنحاء العالم الإسلامي كله.. وفى يوم
عة يمتلئ المسجد على سعته وكثرة مبانيه فيضيق بمن فيه من
سلين فيؤمون ما يحيط المسجد من شوارع وطرقات.. وما أن
ى الشيخ من خطبته وما يليها من درس وموعظة حتى تتلقف
دى الأشرطة كى تسمعها النساء فى البيوت، ولكى تطير إلى
ات الدنيا الست تنقل للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ما
، الشيخ فلا يحرمون من نفعه.

وفى سبتمبر ١٩٨١ حيل بين الشيخ ومنبره.. ومنه من أن الأحبة فى دروس أو فتاوى.. فكانت الضارة النافعة.. فعسى تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا.. وعجيبا لأمر المؤمن أمره كله له خير.. فعكف الشيخ على القرآن الكريم.. مأدبة ا الذى لا تنقضى عجائبه ولا تنفد أنواره التى تبدد الظلمات.. يحيى لياليه يطالع آياته.. ويعاينها ويفسرها.. تفسيرا يضيف إلى كل سبقه الكثير، تفسيرا يتجه إلى القلوب فيفك مغاليقها ويفتح أقفالها، عبارات جزلة ومعان مضيئة تخاطب مسلم اليوم فتأخذه مما يك من ظلمات ركام الجاهلية إلى نور الله وشفاء لما فى الصدو فتتبدد الظلمة.. وتنقشع الغمة..

وعاش الشيخ أيامه فى هذه الأعوام الست فى رحاب التف معتكفا عليه فى بيته، رافضا كل عرض بسفر أو هجرة، مهما ب لمعانه أو اشتد إغراؤه، أو زاد إلحاحه.. فقد استشعر لذة القر وأظلته نعماؤه.. وأحس أن الأقدار قد هيأت له هذه الظرو للاضطلاع بهذه المهمة التى تحتاج لهذا التفرغ الكامل..

وعهد إلينا الشيخ بما انتهى منه.. وهو لا يزال يمضى فى طر يشق عباب البحر وشاطئ النهاية يلوح من بعيد.. يزداد منه اقتر كل يوم.. طالبا منا أن نقدمه إلى المسلمين فى كل مكان كما قدمنا

مكتبته التى انتشرت فى كل مكان.. وسخر الله لنشرها حتى
ار من الموارنة والملحدين يزورون طبعاتها ويصلون بها إلى ما
نصل إليه من بقاع الأرض، قاصدين لعاعات الدنيا التى ما
دناها.. فيكتب لشيخنا ولنا الأجر النافع بفضله وجوده ومنّه
مه.

نسأل الله العلى القدير أن يجعل هذا العمل خالصا لوجه الكريم
أ من كل من عداه من أغراض، فيكون لشيخنا ولنا قائدا إلى
ة وشفيعا يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر، ونورا لنا يوم ندخل
رنا وأن ينفع به من قرأه من المسلمين. آمين يا رب العالمين.

الفهرس

ـة ٥

ال عن آلاء الله ٩

ـة الخصماء ورد المظالم ١٦

الكتب ٢٣

ـان ٢٨

ـاب ٣٤

اسبة على الزكاة والتشديد على مانعها فى الحساب ٤٢

ـ التوبة ٤٧

حينما بدأنا نشر هذه السلسة من كتب فضيلة الشيخ كشك غفلنا عن ذكر تسلسل
ه.. لأنه غنى عن التعريف.. ولكن استجابة لرسائل القراء التى تصلنا من مختلف
ء العالم الاسلامى والتى تطالبنا بمعرفة حياة الداعية الكبير نقدم لهم حياة المؤلف
سطور :

عبد الحميد عبد العزيز كشك .

من مواليد بلدة شبراخيت محافظة البحيرة عام ١٩٣٣

لتحق بجمعية تحتفظ القرآن الكريم، حيث أتم حفظه للقران وهو فى الثانية عشرة
من عمره.

التحق بالقسم الابتدائى بمعهد الإسكندرية الدينى.

وبعد حصوله على الشهادة الابتدائية، أنعم الله عليه بفقد البصر، فواصل الطريق فى
طلب العلم بجد ومثابرة، بعد ما قضى حولين من عمره يطلب العلاج، ولكنه حمد الله
على قدره، فان الله يعوض عن نور البصر ذكاء البصيرة.

التحق بمعهد القاهرة الثانوى، وكان الأول على فرقته دائما، وحصل على مجموع
مائة فى المائة عندما انتقل من الثالثة الى الرابعة فى القسم الثانوى، وفى الشهادة
الثانوية حصل على مجموع ٩٨،٥% .

التحق بكلية أصول الدين، حيث حصل على الشهادة العالمية، وكان ترتيبه الأول،
ومثل الأزهر الشريف فى عيد العلم عام ١٩٦١.

حصل على شهادة العالمية مع تخصص التدريس العالمى.

عمل إماما وخطيبا بمساجد وزارة الأوقاف.

خطيب وامام مسجد عين الحياة (الملك سابقا) منذ عام ١٩٦٤ وظل يوجه دعوته
على منبر مسجد عين الحياة بشارع مصر والسودان بالقاهرة حتى عام ١٩٨١م.

ثم عكف على تفسير القرآن الكريم فى كتاب سماه "فى رحاب التفسير" والذى أتم
طباعته عام ١٩٩٦م وصادر عن المكتب المصرى الحديث.

توفى إلى رحمة الله تعالى عام ١٩٩٦م - ١٤١٧هـ.

الناشر

رقـم الإيـداع
١٩٨٣ / ٤٤٢٦
الترقيم الدولى I. S. B. N.
977-136-013-2